﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأحقاف: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اختِصاصُ عِلْمِ الغَيْبِ باللهِ تَعالى

لمّا اتَّهم المشركونَ الرَّسولَ الكريمَ ﷺ بافتراءِ القرآنِ ونسبَتِهِ إلى اللهِ تعالى زورًا، وتضمَّن ذلك الاتِّهامُ تكذيبَ الرَّسولِ ﷺ في رِسالتِهِ؛ أمَرَه اللهُ تعالى أن يبيِّنَ لهم أنَّه كباقي الرُّسُل في الإتيانِ بالآياتِ، وليسَ أوَّلَ مَن يدَّعي ذلك، فلا يَكونُ مُفتريًا على اللهِ تعالى[1]، ولمّا تضمَّنَ اتِّهامُهم له بالافتراءِ أنَّه لا يعلَمُ ما يكونُ حالُه وحالُهم؛ أجابَهم أنَّه لا يعلمُ الغيبَ، وأنَّ وظيفتَهُ التَّبليغُ والإنذارُ والتَّعليم.

ومن أوجُهِ التَّناسُبِ بين الآيتين أنَّ اللهَ سُبحانَهُ بعد أن حكى طعْنَهم في القرآن الكريم؛ أمر رسولَهُ ﷺ أن يردَّ عليهم اقتراحاتِهم الغريبةَ العجيبةَ، وهي طلبُهم من النَّبيِّ ﷺ أن يأتيَ بآياتٍ حَسَبَ ما يشتهونَهُ، ويقترحونَهُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِدۡعٗا﴾: (بدع) تدلُّ تصريفاتُه على معنَيين كُلِّيَّين، أحدهما: ابتداءُ شيءٍ وصُنْعُهُ لا عن مثالٍ سابقٍ، والآخر: انقطاعٌ وكَلالٌ، ومِن الأوَّلِ قولُكَ: أبدَعْتُ الشَّيءَ قولًا أو فعلًا؛ إذا ابتدأتَهُ لا عن مثالٍ سَبَقَ، ويُقال: فلان بِدْعٌ في هذا الأمر؛ إذا لم يُسبَقْ إليه، ومِن هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: ما كُنْتُ أوَّلَ الرُّسلِ[3]، واللهُ تَعالى بديعُ السَّموات والأرضِ، أي: ابتدَعَهُما، ولم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 16.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 24.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدع).

يَكونا قبلَ ذلك شيئًا يَتوهَّمُهُما مُتوَهِّمٌ[1]، وكلُّ مَن أنشأ ما لم يُسبَق إلَيهِ؛ قيلَ لَهُ: أبدَعتَ، ولِهَذا قيلَ لِمَن خالفَ السُّنَّةَ: مُبْتَدِع؛ لأنَّهُ أحدثَ في الإسلام ما لم يسبِقْهُ إلَيه السَّلَفُ[2].

2) ﴿أَتَّبِعُ﴾: (تبع) تدلُّ اشتقاقاتُه على معنى التُّلوِّ والقَفْو، تقولُ: تَبِعْتُ فلانًا؛ إذا تلوتَهُ، واقتَفَيْتَهُ، وأتبَعْتُهُ؛ إذ لحِقْتَهُ[3]، والتّابع: التّالي، ومنه التَّتبُّعُ والمُتابعةُ والاتِّباع، ويتبَعُهُ: يتلوهُ، والتَّتَبُّعُ: فعلُكَ شيئًا بعدَ شيءٍ[4]، ويُقال: تَبِعْتُ الرَّجلَ، واتَّبعتُهُ بِمَعنًى[5]، وفرَّقَ بينَهُما بعضُ أهلِ العربيَّةِ بأنَّ قولَ القائل: تَبِعْتُ الرَّجلَ؛ إذا مَشِيَ مَعَه، وأمّا قولُ القائلِ: اتَّبعتُهُ؛ إذا مَشِيَ خَلفَهُ؛ ليَلحَقَهُ[6]، والمرادُ به في الآية: الاقتداءُ والعملُ بموجِبِ الآياتِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شـأنُ الـرُّسُـلِ الإنـذار لا العِلْمُ بالأقدار

يُبيِّنُ اللّه تعالى آمِرًا نبيَّه ﷺ أن يقولَ للمُشْرِكين: إنَّه ليس بأوَّل رسُلِ اللّه تعالى إلى خَلْقِه، بل هو واحدٌ من سِلْسِلَة الرُّسل الذين أرسلَهُم اللّهُ تَعالى إلى عِباده؛ ليُخلِصوا العبادَةَ للّهِ وحْدَهُ، ويوَضِّح النَّبيُّ ﷺ أنَّه لا يعلَم ماذا سيُفعَل به، ولا بِمَن كفرَ مِن قومه في الدُّنيا؟ فهو بشرٌ لا يملك لنَفْسِه ولا للآخرين نفعًا ولا ضرًّا، وإنَّما يَتَّبع ما يوحى إليه مِن رَبِّه، وما هو إلّا نذيرٌ واضح البَيان، يُحذِّر النّاس مِن عذابِ اللّهِ تَعالى، ويَسْعى في إنقاذِهِم بالحِكمَة والمَوعِظَة الحَسَنَة[7].

(1) الخليل، العين: (بدع).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (بدع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) الخليل، العين: (تبع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (تبع).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(7) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصلِ هذهِ الآيةِ عمّا قبلَها:

التَّرقّي في الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشْرِكينَ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتَيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك لأنَّ اتِّهامهم النَّبيَّ ﷺ يقتضي تكذيبَهُم كوَنه رسولًا، أو أنَّ الله تعالى قد بعثَهُ إلى العبادِ، وذلك يورِثُ في نفسِ المتلقّي سؤالًا، وهو: فما الرَّدُّ على هذه التُّهمة؟ فجاء الجوابُ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: لستُ بأوَّلِ رسولٍ منَ البَشَر، بل أرسلَ اللهُ تَعالى الرُّسُلَ، وقد كانوا من البشَرِ، فلِمَ تُنكرونَ رِسالتي؛ لأنِّي منَ البشرِ، وتَستعظمونَ ذلك؟[1].

وتُركَ عطف ﴿قُلْ﴾ في هذه الآيَةِ على ﴿قُلْ﴾ الأولى في قولِه تَعالى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ للدِّلالة على استقلالِ كلٍّ منَ القولينِ، وكونِ كلٍّ من البرهانَينِ محطَّ الاستقلالِ والتَّفرُّدِ بالإثباتِ لصدقِ الرَّسولِ ﷺ، وفي تَرْكِ العطفِ أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ التَّرقّي في إيرادِ الرُّدودِ عليهم[2].

نكتةُ الأمرِ بفِعْلِ القول:

اتِّباعُ النَّبيِّ ﷺ لما يوحى إليهِ من ربِّه تَعالى

صُدِّرَت الآية الكريم بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾، فقال سُبحانَهُ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يتكلَّم في الشَّرعيّات من قِبَل نفسِه، بل هو مأمورٌ منَ الله تَعالى، وهذا أنسبُ لسياق الآيةِ الَّتي فيها إثباتُ كونِهِ رسولًا يتَّبع ما يوحى إليه من ربِّه سُبحانَهُ.

نكتةُ حذفِ (لهُم) بعدَ فعلِ القَوْلِ:

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مُتعلَّقَ فعلِ القَوْلِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا﴾؛ إيجازًا وعنايَةً بالأهمِّ، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: (قُلْ لهم)؛

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 241.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 16.

تَعميمُ الخطابِ أبلَغُ في التَّأثير وأوسَعُ في المَعنى

لأنَّ محطَّ الاهتمامِ على المَقولِ دونَ المَقولِ لهم، وليَعُمَّ الخطابُ النّاسَ جميعًا، فيكون الحذفُ أبلغَ في التَّأثير وأوسعَ في الدَّلالَةِ.

ولو كانَ الاهتمامُ بالمقولِ لهم؛ فإنَّ عمليَّة القولِ ذاتَها تحظى بالاهتمامِ حينئذٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: 63].

غرضُ النَّفي بالأداةِ ﴿مَا﴾:

توكيدُ الخبَرِ للمُبالغة في إبطالِ التُّهم

جاء النَّفي في قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بـ ﴿مَا﴾؛ لِما تدلُّ عليه ﴿مَا﴾ من قوَّةٍ في النَّفْيِ، ووجهُ ذلك: أنَّ ﴿مَا﴾ تفيدُ التَّوكيد، ولذا تقعُ جوابًا للقَسم، كقولهم: واللهِ ما زيدٌ بحاضرٍ، وقَد نصَّ سيبويهِ أنَّ قولهم: "ما فعل" نفيٌ لقولهم: "لقَد فعل"[1]، ممّا يدلُّ على أنَّ فيها تقويةً وتوكيدًا.

والنَّفيُ بها أقوى من التَّوكيد بـ (ليس)؛ لأنَّ العربَ استَعْمَلَت (ليس) استعمالَ الأفعالِ، وعلى هذا فالجملةُ المَبْدوءَة بها جملةٌ فعليَّة، والجملةُ المَنْفيَّة بـ (ما) اسميَّة، والجملة الاسميَّة أثْبَتُ مِنَ الجُملة الفعليَّة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿كُنتُ﴾:

نفيُ الأعمِّ مُستلزِمٌ نفيَ الأخَصِّ

عُبِّر بفعلِ الكونِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الخبرِ عن المُتكلِّم على سبيلِ الثُّبوتِ والتَّمكُّنِ؛ إذ نفيُ الخبرِ عن المبتدأ المصدَّرِ بفعلِ الكونِ والإيجاد أعمقُ دلالةً على النَّفي وأكثرُ تحقيقًا لمقصودِ النَّفي؛ لأنَّ نفي خصوصِ الخبر بواسطةِ نفيِ الوجود طريقةٌ برهانيَّةٌ؛ إذ نفيُ الأعمِّ مستلزمٌ نفيَ الأخصِّ.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿بِدْعًا﴾:

تَفْنيدُ تُهْمَةِ الافتِراءِ

عبَّر النَّظمُ عن الخبرِ المَنفيِّ عن اسمِ (كانَ) بقولِه:

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 252 - 255.

﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا﴾، وهو صفةٌ مُشبَّهةٌ، ونظيرُهُ: الخِفُّ، بمعنى الخَفيفِ[1]، فلفظ ﴿بِدۡعٗا﴾ دالٌّ على الثُّبوتِ والمُلازمةِ لموصوفِه، والمرادُ به الأوَّليَّةُ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، ومِنه: البِدعُ والبديعُ مِنَ الأشياء، وهو ما لَم يُرَ نظيرُهُ[2]، وهو محطُّ نفيِ لازمِ قولِهم السّابق: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾؛ إذ الافتراءُ في نبوَّتِهِ نافٍ كونَهُ رَسولًا، ونفيُ كونِهِ كذلك يستلزمُ عدمَ وُجودِ رُسُلٍ قبلَهُ؛ إذ اتِّهامُهُ بالافتراء يوجِبُ اتِّهامَ جميع الرُّسلِ بذلك، فبيَّنَ نفيُ كونِهِ بِدْعًا من الرُّسُل وجودَ الرُّسُلِ السّابقين، ووجودُهُم يَستلزِمُ إمكانيَّةَ بعْثِ الأنبياء والرُّسُل، فلِمَ يُكذِّبونَهُ، ويَعتقدونَ أنَّه يَفتري نبوَّتَهُ على الله تعالى؟ والمعنى: لستُ أوَّلَ رسولٍ؛ حتى تُنْكِروا نبوَّتي[3].

ويحتملُ أن يكون هذا جوابًا دالًّا على اتِّهامٍ مُضمَرٍ، وهو أنَّهم لم يَسمَعوا بِهَذا في آبائِهِم الأوَّلين؛ فأجابَهُم بأنَّ الرُّسُلَ قبلَه قد توالَتْ، والاصطفاءاتِ قد تعدَّدتْ.

وذهبَ الإيجي إلى أنَّ المرادَ بـ(البِدْعِ) الأمرُ بما لم تأمُر به الأنبياءُ، منَ التَّوحيدِ ونَبْذِ الشِّرك والأوثانِ[4]، فالبدعُ على جميعِ ما تقدَّم إمّا أنْ يتعلَّقَ برسالتِهِ ﷺ وإمّا أن يتعلَّق بأوامرِهِ.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

بـيـانُ جِـنْـسِ البِدْعِيَّةِ المَنْفيَّة

﴿مِّنَ﴾ في قولِ الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على البيانِ؛ لأنَّ نفيَ البِدعيَّةِ فيه ضربٌ مِنْ ضروبِ الإبهامِ، فجاء بيانُهُ في قولِ الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 112.
(2) العُلَيمي، فتح الرحمن: 6/ 283.
(3) الواحدي، الوجيز، ص: 994.
(4) الإيجي، جامع البيان: 4/ 123.

دلالة (ال) في ﴿ٱلرُّسُلِ﴾:

مَـدْحُ المُرْسَلينَ والتَّنويهُ بِمَكانَتِهِم

(الـ) في ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ مِن قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ دالَّةٌ على الجنسِ والحقيقة؛ إذِ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ لم يكُنْ أوَّلَ مَن قامَتْ به هذه الحقيقةُ الكاملةُ، بل اتَّصفَ بها قبلَهُ أناسٌ كثيرونَ جاؤوا إلى أقوامِهم مُرسَلين، وتعريفُ الحقيقةِ يرادُ منه إبرازُ صنفٍ من البَشَر اتَّصفوا باصطفاءِ اللهِ تعالى لهُم، فكان في التَّعريفِ مدحٌ لهذا الصَّنف المُجْتبى على النّاس بمُهمَّةِ التَّبليغ والإعلامِ عن مُرادِ الله تعالى مِن خَلْقِه.

والجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ في محلِّ نصبٍ صفةٌ للخَبَر ﴿بِدْعًا﴾، وهو مفيدٌ تخصيصَ البدعيَّةِ المنفيَّة بحقيقةِ الرِّسالة، وذلك لا يَنفي كونَه سيِّدَهُم وأعلاهُم عندَ ربِّه تَعالى مَنزلةً.

دَلالةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ على (النَّبيِّين):

النَّبيُّ أعـمُّ من الرَّسُلِ

آثرَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ (الرُّسُل) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ دونَ لفظِ (الأنبياءِ أو النَّبيِّين)؛ لأنَّ الرِّسالةَ أشرَفُ من النُّبوَّةِ وأخصُّ؛ إذ كلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا؛ فلمّا لم يكُن بِدْعًا من الرُّسُل؛ فلم يكن بِدعًا منَ الأنبياءِ قطعًا.

مناسبةُ الوصلِ في: ﴿وَمَآ أَدْرِى﴾:

اختِصاصُ عِلْمِ الغَيْبِ باللهِ تَعالى

وصلَ النَّظمُ القرآنيُّ نفيَ الدِّرايةِ بما يَحصُلُ لهُ ولهُم بنفي البدعيَّةِ عن رسالتِه في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾؛ تثبيتًا لصدقِ نبوَّتِه ومبالغةً في نفي اتِّهامِهم لهُ بالافتراءِ لنبوَّته؛ إذ قد يُفهَمُ من كونِه نبيًّا ورَسولًا أنَّه يَدري الغيبَ، ويعلمُ المُستقبلَ، ولمّا نفَى أنَّه يعلمُ ذلك؛ قالوا: إنَّه مُفتَرٍ، فكانَ العطفُ بيانًا لذلك اللّازمِ الغريب، ونفيًا لهُ وإثباتًا لصدقِه بأنَّه رسولٌ أسوةً ببقيَّةِ الرُّسُل لا يعلمونَ الغيبَ، ولا يُحيطونَ بالأمورِ المستقبلَة.

وقول اللهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تتميمٌ لقول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهو بمنزلةِ الاعتراضِ، وذلك لأنَّ المُشْرِكينَ كانوا يسألون النَّبيَّ ﷺ عن المُغيَّباتِ تهكُّمًا واستهزاءً[1].

نكتةُ النَّفي بالأداةِ (ما):

التَّأكيدُ على نَفْيِ عِلْمِ النَّبيِّ ﷺ بالغَيْبِ

جاء النَّفي في قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ بـ (ما)؛ لِما تدلُّ عليه (ما) من قوَّةِ النَّفْيِ، والنَّفيُ بها آكَدُ من النَّفي بـ (ليس)[2].

فكان في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تأكيدٌ على نفيِ درايتِهِ بالمغيَّباتِ، وذلك لا يَستلزِمُ عدمَ درايةِ غيرِهِ بمآلِهِ ومآلِهِم، وهو اللهُ تعالى.

سرُّ استعمالِ ﴿أَدۡرِي﴾ مادَّةً وصيغةً:

نَفيُ الإحاطَةِ بالمَعْلومِ لا يَقْتَضي نَفيَ أصلِ العِلْمِ

عُبِّر بفعل الدِّرايةِ في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ لما تدلُّ عليه الدِّرايةُ من الإحاطة بالمعلوم من جميع جهاتِهِ[3]، فكان في الآيةِ نفيُ الإحاطة لا بمطلق العِلْم؛ إذ مِنَ المعلوم أنَّ النَّبيَّ ﷺ يعلَمُ أنَّ اللهَ تَعالى يُثيب الطَّائعَ، ويعاقبُ المسيءَ من حيث الجملةُ، ويعلَمُ ﷺ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ أعطاهُ الدَّرجاتِ العُلا من الجنَّةِ، كما أفادَ نفيُ الفعلِ المضارع الدَّلالةَ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لتلك الدِّرايةِ، وهو استمرارٌ للنَّفي لا نفي للاستمرارِ.

دلالة ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿مَا يُفۡعَلُ﴾:

تَعَدُّد الدَّلالات إثراءٌ للمَعاني القُرآنيَّة

﴿مَا﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تحتملُ أن تكونَ استفهاميَّةً في محلِّ رفعٍ، أو موصوليَّة في موضعِ نصبٍ[4]، فإن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 17.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 252 - 255.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 92.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 298.

حُمِلَت على الاستفهام؛ يكونُ المعنى: ما أدري جوابَ هذا السُّؤال، فيكونُ النَّفيُ مُتسلِّطًا على محذوفٍ؛ لأنَّه يعلمُ السُّؤالَ لكنَّه لا يَدري الجوابَ، فيكون الجوابُ مَجهولًا، وحينئذٍ يكونُ هؤلاءِ المكذِّبون قد صدرَ منهم سؤالٌ مفادُهُ: ما يفعلُ بكَ وبنا؟ فأجابَ بأنَّه لا يَدري جوابَ ذلكَ، بل يتوقَّفُ علمُهُ على إخبارٍ من اللّه تعالى، وإنْ حُمِلت ﴿مَا﴾ على كونِها اسمًا موصولًا؛ فإنَّ المعنى: أنَّه لا يَدري الأمرَ الَّذي يُفعَلُ به ولا بهم، وهي مفيدةٌ العُمومَ، فإنَّ المَعنى: أنَّه لا يَدري عمومَ ذلك كلَّه، وهو لا يَنفي أنَّه يعلمُ بعضَه بتعليمِ اللّه تعالى وإطّلاعِهِ على مآلِ الفريقين، وذهبَ الهرريُّ إلى أنَّ حمْلَ ﴿مَا﴾ على الاستفهاميَّةِ أنسَبُ لمقامِ التَّبرّي من الدِّرايةِ[1].

بلاغةُ استعمالِ ﴿يُفْعَلُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إطْلاعُ اللهِ تَعالى نبيَّه ﷺ على أحوالِ الآخِرَةِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ ﴿يُفْعَلُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ لأنَّه أعمُّ الأفعالِ معنًى ودلالةً؛ إذ كلُّ فعلٍ خاصٍّ يصحُّ أن يقال عليه: إنَّه فعلٌ، سواءٌ كانَ إدخالًا للجنَّة أم إنقاذًا منَ النّار، أم رِزقًا أم رحمةً...الخ، ومِنهُ قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: 4]، فكلُّ فعلٍ متروكٌ للإرادةِ الإلهيَّة يفعلُ ما يشاء.

والفعل المذكور في الآيةِ إن أُريدَ به خصوصُ أحوالِ الدُّنيا؛ فإنَّ النَّبيَّ الكريم ﷺ لم يُبعَثْ للإخبار بذلك، وإنْ كان لفعلِ الآخرةِ إدخالٌ في الجنانِ أو في النِّيران؛ فإنَّ ذلك يَعلَمُهُ عن طريقِ الوَحي، فيُبشِّرُ المؤمنينَ، ويُخوِّفُ الكافرينَ.

وجوَّز بعضُ أهل العلم أن يكون النَّفيُ للدِّراية المفصَّلة، ومالَ أبو السُّعود إلى أنَّ المقصودَ بـ ﴿مَا﴾ عبارةٌ عمّا ليس علمُهُ من وظائف

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 25.

النُّبوَّةِ، فيدخل في ذلك المنفيِّ الحوادثُ الدُّنيوية دون ما سيقَعُ في الآخرةِ، فإنَّ العلمَ بذلكَ من وظائفِ النُّبوَّةِ، وقد جاء الوحيُ بتفاصيلِ ما يُفعلُ بأهل الإيمان وأهل الكُفْرِ[1].

نكتةُ بناءِ ﴿يُفْعَلُ﴾ للمفعول:

بُني الفعل ﴿يُفْعَلُ﴾ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ لِما لَم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ لأنَّ العنايةَ بالفعلِ؛ إذ الفاعلُ معلومٌ من السِّياق، وهو الله تعالى.

تخويفُ العبادِ وحثُّهم على الاستعدادِ بما يَدفَعُ المَخاوِفَ

وفي بناء الفعل للمفعولِ تخويفٌ لكلِّ النّاس مُؤمِنِهم وكافرهم بأنَّهم محلُّ خطر، وعليهم الاستعدادُ بما يدفعُ ذلكَ من عمَلٍ صالحٍ.

وصيغَ بالفِعْلِ مضارعًا؛ للتَّنبيه على أنَّ المرادَ الاستقبالُ، والمعنى: ما يَفعَلُ اللهُ تعالى بي وبِكُم فِيما يستقبلُ مِنَ الزَّمن[2].

معنى (الباء) ودِلالتُها في قولِهِ: ﴿بِي وَلَا بِكُمْ﴾:

سُقوطُ الفعلِ على الفاعل أشدُّ تأثيرًا

الباءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ على وُقوعِ تأثيرٍ من الفاعلِ على المفعولِ به، وذلك التَّأثيرُ يصلُ أثرُهُ إليه، ويقعُ تحتَ طائلته، بخلافِ (فعلت لك)؛ فإنَّ التَّأثير يقعُ على المفعولِ، وتكونُ فائدتُه له، ولذا عُدِّيَ في الآيةِ بالباء؛ للدَّلالةِ على سقوطِ تأثيرٍ على المفعولِ به نفسِهِ.

دلالةُ ذِكرِ الضَّميرين ﴿بِي﴾ و﴿بِكُمْ﴾ دونَ (بنا):

الإنصافُ في المُحاوَرةِ والمُجادلَةِ أدعى للانقيادِ إلى الحقِّ

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ ضميرَيِ المُتكلِّم والمُخاطَبِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ دون (بنا)؛ للدَّلالةِ على التَّمييز بينَ الفريقين، وأنَّهما غير متساوِيَين، وفي ذلك إشارةٌ إلى التَّسويةِ بينَ الخصمينِ في الكلامِ، وذلك شرطٌ للإقناعِ والحُكمِ العادِلِ وصولًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 79.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 309.

إلى المقصودِ، فيكون في الآيةِ إنصافٌ في الكلام، وذُكِرَ النَّبيُّ ﷺ بضميرِ المتكلِّم دونَ أتباعِهِ؛ لكونِهِ محلَّ الاتِّهامِ مِنَ المُكذِّبينَ.

نُكتةُ ذكر حرف النَّفي (لا):

توكيدُ الكلامِ من مقاصِدِ الإفهام

جاء التَّعبيرُ بحرفِ النَّفي (لا) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على توكيدِ النَّفي المعلومِ ضِمْنًا من الكلام؛ إذ فُهِمَ من سَلْبِ عدمِ الدَّراية عمّا يُفعَلُ به ﷺ نفيٌ لفعلِه، فسَوَّغَ ذاك عطْفَ النَّفي عليه[1].

دلالةُ فصلِ جُملةِ: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ﴾:

تأكيدُ اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ للوَحْيِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما من شبه كمال الاتِّصالِ، وهو المُسمّى: الاستئنافَ البيانيَّ[2]، فإنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ يبعث في نفس المتلقّي سؤالًا حاصِلُهُ: إنَّك إن كنتَ غيرَ مُحيطٍ بتفاصيلِ المآلاتِ الأُخرَويَّة، فَلِمَ تُخبرُ بأنَّ المُتَّبعينَ لك في الجنَّةِ، والمُكذِّبينَ لك في النّار؟ فأبلغَهم بأنَّه يُتابعُ ما يَأتيهِ مِن وحْي، أو أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ مقتضيًا أنَّه لا يعلم الغَيْبَ، وذلك يستلزمُ - بحسب زَعْمِهم - أنَّه ليس رسولًا، فكان السُّؤالُ: كيف تدَّعي الرِّسالة، وأنت لا تعلمُ ذلك؟ فجاء الجوابُ بأنَّه يَتَّبِعُ ما أوحِيَ إليه من التَّبليغِ بالغَيبِ أو غيرِهِ.

ويجوزُ أن يكون قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مفصولًا عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ بمنزلةِ التَّأكيدِ لما قبلَهُ، فيكون الفصلُ حينئذٍ لكمال الاتِّصالِ[3]؛ إذ قَصْرُ حالِهِ على اتِّباعِ ما يوحى إليهِ توكيدٌ؛ لكونِهِ لا يعلَمُ ما يُفعَلُ به ﷺ ولا بِهِم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 298.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 17.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 26.

نَوْعُ ﴿إِنْ﴾ ووظيفَتُها:

اختِلافُ جِنْسِ المَنفِيِّ أوجَبَ اختِلافًا في طريقِ النَّفْيِ

﴿إِنْ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ حرفٌ دالٌّ على النَّفي، والمعنى: ما أتَّبِعُ إلّا ما يوحى إليَّ، وعُدِلَ عَن النَّفْيِ بـ (ما) إلى النَّفْيِ بـ ﴿إِنْ﴾؛ لاختلافِ المنفيِّ بها؛ إذ تلك المنفيّاتُ كانت لدفعِ وصفي البِدْعِيَّة والدِّرايَة، وهذه لإثباتِ الاتِّباعِ للوَحْيِ، فيتحقَّقُ التَّناسُبُ في اللَّفْظِ والمَعْنى معًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بِفعلِ الاتِّباعِ دونَ الطّاعَةِ:

الاتِّباعُ اقتداءٌ تامٌّ وعدمُ خروجٍ عنِ النِّظام

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ فِعلَ الاتِّباعِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ دونَ فعلِ الطّاعةِ مثلًا؛ لأنَّ الاتِّباعَ أعلى من طاعةِ الأمر؛ إذِ الاتِّباعُ جريانٌ على النِّظام والمَنهجِ دونَ خُروجٍ عنه، بخلافِ الطّاعة التي قد تقترنُ بالخروجِ أحيانًا، كما أفادَ التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ استمرارَ هذا الاتِّباعِ وتجدُّدِهِ بتجدُّدِ الموحَى بِهِ.

بلاغةُ الطِّباقِ في: ﴿أَتَّبِعُ﴾:

الخيرُ في الاتِّباعِ، والشَّرُّ في الابتداع

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ طباقٌ معَ قولِهِ قبلُ: ﴿بِدْعًا﴾؛ إذ البِدعُ عدمُ المُتابعةِ، والإحداثُ في الشَّرْعِ بما لم يأمر بِهِ الأنبياءُ السّابقون، والاتِّباعُ السَّيرُ وراءَ نِظامٍ سابقٍ، وبينَ الابتداعِ والاتِّباعِ طباقٌ مقصودٌ يفيدُ إشارةً إلى ما ينبغي أن يكونَ عليهِ حالُ المؤمنين مع الشَّرعِ الحكيمِ بالاتِّباعِ دونَ الابتداعِ في الدِّين.

نوعُ الاستثناءِ ودلالتُهُ:

حَصْرُ اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ في الوَحْيِ

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوبِ الاستثناءِ - ﴿إِنْ﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ - في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، وهو استثناءٌ مفرَّغ، يُفيدُ وقوعَ ما بعدَ ﴿إِلَّا﴾ مَعمولًا لما قبلَها، ويكونُ التَّقدير: (أتّبِعُ ما يوحى إليَّ)، ولكن على وجهِ التَّوكيدِ؛ إذ المرادُ: لا أتَّبِعُ شيئًا من الأشياءِ، وشريعةً منَ الشَّرائع، إلّا الشريعةَ الَّتي تنزِلُ عليَّ، فحُذِفَ المُستثنى منه؛ للدَّلالة على عُموم المنفيِّ المُستثنى منه؛ لقصدِ المبالغةِ.

بلاغةُ القَصْرِ في: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا﴾:

شأنُ المُصطَفينَ التَّبليغُ عن ربِّ العالمينَ

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ أسلوبَ القصرِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على حصْرِ أفعالِهِ ﷺ على اتِّباعِ الوَحْي، لا قصرِ اتِّباعِهِ على الوَحْي، كما هو المتبادر إلى الأذهانِ[1]، فليسَ شأنُه في التَّبليغِ عن ربِّهِ إلّا بما يوحى إليه ممّا فيه مصالحُ العبادِ ومَنافِعُهُم، فما بالُكُم تكذِّبوني فيما لم أُطلِعْكُم عليه من أحوالِكم الدُّنيويَّة وتفاصيلِها الَّتي لم ينزلْ فيها بلاغٌ وأمرٌ بإبلاغِها، وإنَّما بلَّغتكُم بمآلِ المؤمنينَ ومآلِ المُكذِّبين لاتِّباعي ما يوحى إليَّ من تبليغِكم التَّرغيبَ والتَّرهيبَ.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالةُ استعمالِها:

بيانُ عُمومِ الاتِّباعِ للوَحْي المُنَزَّل

﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ موصولٌ اسميٌّ، والتَّقدير: إن أتَّبع إلّا الذي يوحى إليَّ، ويجوزُ أن تكون موصولًا حرفيًّا، وهي التي تُسْبَك مع ما بعدَها بمصدَرٍ، والتَّقدير: إن أتَّبع إلّا الموحَى بهِ إليَّ، وعلى كلا الوَجْهَين فإنَّ فيه دلالةً على العموم؛ إذ الموصولُ يدلُّ على ذلكَ، والمعنى: أنَّه ﷺ متَّبِعٌ لجميعِ ما أوحاه اللّهُ تَعالى إليه، لا يخرج عن شيءٍ من الوحي قيدَ أنملةٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾:

تَصْويرُ المَعاني في قالَبِ المَحْسوساتِ أعْلَقُ بالذِّهْنِ

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ الإيحاءَ الواردَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ استعارةً مكنيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شُبِّه الإيحاءُ بمَن تتأتَّى مُتابعتُهُ والسَّيْر على خُطاه، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، وأُبقِيَ من خواصِّهِ الاتِّباعُ؛ إخراجًا للمعنويّات في صورةِ الحسِّيّات؛ ليكونَ أعلقَ بالذِّهْنِ وأسرعَ في الفَهْمِ.

نكتةُ ذكرِ الإيحاءِ دونَ الإنزال:

جاء التَّعبيرُ بفعلِ (الإيحاء) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 26.

شُمولُ الاتِّباعِ جميعَ صوَرِ الوَحْيِ

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دونَ فعلِ الإنزال؛ لكونِ لفظِ الاتِّباعِ شاملًا للمُنزَلِ عليهِ والمُلهَمِ إيّاه ومِن وراءِ حِجاب، فيكونُ أكثرَ دلالةً على عُمْقِ الاتِّباعِ له لشمولِهِ جميعَ صورِ الوَحْيِ وأحوالِهِ المتعدِّدة.

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المبنيِّ للمفعول ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

تجدُّدُ الاتِّباعِ بتجدُّدِ الوحْيِ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالفعلِ المُضارعِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على الاتِّباعِ المستمرِّ للوحيِ بتجدُّدِ الإيحاءِ إليهِ وتتابُعِه عليه.

كما أفادَ بناءُ الفعلِ للمفعولِ الاهتمامَ بالوَحْيِ وفعلِهِ؛ لأنَّه مَقصَدُ الخطابِ بالذّات، كما أفادَ هذا البناءُ أنَّ اتِّباعَ الوحيِ يكونُ اتِّباعًا للهِ تَعالى وأوامرِهِ في الحقيقة؛ لأنَّه مطلوبُهُ ومُرادُهُ.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ (إلى):

مَصْدَرُ الوحيِ ومَبْدَؤُهُ مَعْلومٌ، وهو اللهُ تَعالى

حرفُ الجرِّ (إلى) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دالٌّ على الانتهاءِ، والمرادُ بيانُ انتهاءِ الإيحاءِ إلى النَّبيِّ ﷺ من غيرِ بيانٍ لمُبْتَدَئِه؛ لأنَّه معلومُ المصدرِ والمَنبع.

دلالةُ الخبرِ بالجُملةِ الفعليَّةِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾:

ردُّ الاتِّهامِ بما يُناسِبُ المَقام

جاء التَّعبيرُ بالجُملةِ الفعليَّةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على حدوثِ ذلك الاتِّباعِ وتجدُّدِهِ بتجدُّدِ الإيحاءِ إليه، والغرضُ من الإخبارِ النَّظرُ إلى الرَّدِّ على ما استلزمَهُ ادِّعاؤُهم افتراءَه النُّبوَّةَ واختلاقَهُ لها، بأنَّه ليس بِدْعًا من الرُّسُل، ولم يكن أوَّلَ مَن أُرسِلَ حتى يكونَ مُفتريًا لها، ولم يأمُر بما يُخالفُ النَّبيِّينَ حتى يكون مُبتدِعًا ومخالِفًا ومُفتريًا، بل هو مُتابِعٌ لما يوحَى إليه، شأنُهُ في ذلك شأنُ سائرِ النَّبيِّين والمُرسَلينَ المُتابعينَ لما يوحَى إليهم.

معنى (الواو) ودلالتُها في قولِهِ: ﴿وَمَآ﴾:

الواو في ﴿وَمَآ﴾ مِنْ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

بـيـانُ وظـائـفِ النَّبيِّ ﷺ

عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتانِ مُشْتَرِكَتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما مناسبةٌ في اللَّفظ؛ لاتِّحاد الجملتين في صياغَةِ أسلوب القصرِ بطريقِ النَّفي والاستثناءِ، وبين الجملتين تناسُبٌ في المعنى، وذلك أنَّه بعد تقرير اتِّباع النَّبيِّ ﷺ لما يوحى إليه؛ بيَّن أنَّ وظيفتَهُ الإنذارُ الظّاهرُ الواضحُ دونَ الإخبارِ عمّا في الغَيب ممّا كانوا يقترحونَ إجابتَهُ لهُم.

ويجوزُ أن تكون جملةُ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ معطوفةً على جملةِ: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ لأنَّه الغرضُ الذي سيقَ الكلامُ لَهُ، بخلافِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[1]، فيكون ما بينَهُما اعتراضًا.

دلالةُ الإخبارِ بالجُملةِ الاسميَّة:

نَـفْـيُ الـعِـلْـمِ بالغَيْب وإثْباتُ النِّذارةِ

الجملةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، وهي دالَّةٌ على ثبوتِ حكمِ الخبر للمبتدأ، ودوامِ وصفِ النِّذارةِ له ﷺ، والغرضُ من الخبرِ الرَّدُّ على ما توهَّموهُ من معرفةِ النُّبوَّة للغيب، فهو ناظرٌ لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

وفي الآيةِ لفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ؛ إذ إثباتُ الاتِّباعِ مناسِبٌ لنَفْيِ بدعيَّتِه، وإثباتُ النِّذارةِ مُناسِبٌ لنفيِ إحاطَتِهِ بأحوالِ المكلَّفينَ، فيَعُمُّهم بالتَّخويفِ.

بلاغةُ القصرِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾:

قـصْـرُ الـرَّسـولِ ﷺ على الإنذار مـن عـاقـبـة التَّكذيبِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وقد جاء بطريق النَّفي والاستثناءِ، وهو أقوى طُرُقِ القصْرِ، وهذا القصر من قصرِ الموصوفِ على الصِّفة قصرَ قلبٍ إضافيًّا[2]؛ ليكونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 18.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 18.

أبلغَ في الرَّدِّ عليهم في زَعْمِهم أنَّ النُّبوَّةَ تَقتضي عِلْمَ الغَيبِ ومعرفةَ المُستقبل؛ مُثبتًا لهم أنَّه لا يعلمُ مِنَ الغَيب إلّا ما أخبرَهُ الوحيُ به، وأنَّ وظيفتَهُ الإنذارُ مِن عاقبةِ التَّكذيبِ وعدمِ الإيمانِ به.

توجيهُ تخصيصِ النِّذارةِ بالذِّكر:

الرَّدُّ على المُكذِّبينَ مُقتضٍ الاقتصارَ على النِّذارةِ

اقتصَرَ النَّظمُ على تحديدِ وظيفةِ النَّبيِّ ﷺ بالإنذارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ دونَ التَّبشير؛ لأنَّ السِّياقَ سياقُ إنكارٍ، فقد اتُّهم بافتراءِ النُّبوَّة، والكذبِ في نسبةِ الآياتِ للّه تعالى، فأوضَحَ لهم أنَّه مُنذِرٌ لهُم من سوءِ عاقبةِ التَّكذيبِ والكُفرانِ بالنُّبوَّة والآياتِ؛ ليكونَ ذلك أردعَ لهُم لعلَّهم يَهتدونَ.

دلالةُ وصفِ ﴿نَذِيرٌ﴾ بصفةِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

البيانُ الواضِح واللِّسان الفصيح أدْعى لإقامَةِ الحُجَّة على الخَلْقِ

جاءَ وصف النَّذير في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بكونِه مبينًا، أي: واضِحَ الدَّلالةِ ظاهرَ المَعنى في الكلامِ والعِبارة؛ للكشفِ والتَّوضيح، فلَم يكُنْ إنذارُهُ غامِضًا مُجمَلًا خفيًّا لا يُفهَمُ مَعناه، بل كان بيانُهُ واضحًا ولِسانُهُ فَصيحًا؛ ليُقيمَ الحُجَّةَ على العبادِ.

و(النّذيرُ) صيغةُ مُبالغةٍ لاسمِ الفاعلِ أو صفةٌ مُشبَّهةٌ؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ أوِ الدَّوام، ووصفُهُ ﷺ بالنَّذيرِ المُبين: إعلاءٌ لمَقامِهِ وتصديقٌ لنبوَّتِهِ وإثباتٌ لجَدارةِ مَنطقِه وسموِّ الآياتِ التي أوحِيَتْ إليه، فهو مُبينٌ بالأدلَّةِ المُبيِّنةِ والآياتِ المصدِّقة[1].

سرُّ كثرةِ (ما) بمَعانٍ مُختلفةٍ:

الاشتمالُ على ألفِ المدِّ توسيعٌ للمَعنى وتكثيرٌ لَهُ

وقعَت في الآيةِ بتمامِها "ماءات" كثيرةٌ بمعانٍ مُتعدِّدةٍ، فقد قالَ اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فاشتَمَلت على ثلاثةٍ للنَّفي، واثنَتَينِ مَوصولتَيْنِ أو قد تكون واحدة منهُما استفهاميَّة،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 112.

وفي تعدُّدِها وكثرتِها في النَّظم القرآنيِّ إعطاءُ ألفِ المدِّ تواؤُمًا مع كمالِ النَّفي أوِ اتِّساعِ العُموم أو طولِ الاستفهامِ؛ لما احتوَتْهُ من صوتِ ألفِ المدِّ ودلالتِه.

بلاغةُ تكرارِ أُسلوبِ القَصْرِ:

ردُّ الاتِّهام بتوكيدٍ عالٍ للكَلام

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ أسلوبَ القَصْرِ بالنَّفي والاستثناء - وهو أقوى طُرُقِ القصرِ - مرَّتينِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقيقِ أعلى قَدْرٍ مُمكنٍ من تَوكيدِ المعنى المُرادِ إثباتُهُ؛ إذ هو محلُّ الاتِّهام والشَّكِّ والإنكار، فكانَ المقامُ مُقتضيًا القَصْرَ؛ تقويةً للمَعْنى وتوكيدًا وتحقيقًا لدِلالتِه.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الدِّرايةُ والعِلْمُ:

الدّرايةُ أخصُّ من العِلْمِ مُطلقًا

تُستعمَلُ الدِّرايةُ للعِلْم التَّفصيليِّ، بخلافِ العلْم فإنَّهُ يُطلَقُ على ما يعمُّ الإجماليَّ والتفصيليَّ، ولذا فإنَّ الدِّرايةَ إذا نُفيتْ؛ فلا يلزمُ منهُ نفيُ العلمِ مُطلقًا؛ لأنَّ نفْيَ الأخصِّ لا يَستلزمُ نفيَ الأعمِّ؛ إذِ العلمُ الإجماليُّ يكونُ مُتحقِّقًا من دونِ علمٍ بالتَّفاصيلِ والجزئيّات، ومِن ثَمَّ حمَلَ البيضاويُّ عدمَ دِرايتِهِ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ على العلْم التَّفصيلي؛ لأنَّ ذلك مِن علْم الغيب، فقال عن قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: "في الدّارينِ على التَّفصيلِ؛ إذْ لا عِلْمَ لي بالغَيب"[1].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 112.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"